شيخ الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي

وكتابه إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء

بقلم : الأستاذ محمد سكحال
باحث برابطة العالم الإسلامي . مكة المكرمة

إن الحديث عن الإمام ولي الله الدهلوي ، وجهوده في النهضة العلمية الإسلامية في الهند ، يستدعي العطف بمقدمة تجلي الحالة العامة التي سادت الثقافة الإسلامية ، ومنهليها الصافيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، في تلك الأقطار خلال عدة قرون خلت قبل بزوغ نجم هذا الإمام المصلح المجدد ، وما كان في أوائلها من طموم الجهل وسبات الغفلة ، ثم تلتها إرهاصات فجر جديد ، فجر صحوة إسلامية ونهضة علمية ، ارتكزت بصورة خاصة على إحياء الحديث والعناية بعلوم السنة .

وخلاصة هذا المسح التاريخي السريع ، أن علم الحديث كان منتشراً في تلك النواحي إبان الدولة العربية التي بدأت نشأتها من يوم دخل السند فاتحاً لها محمد بن قاسم الثقفي في خلافة الوليد بن عبد الملك ، بسبب هجرة كثير من حملة العلم من العرب إلى السند ثم الهند ، واستيطان تلك الأقاليم ، وتوارث علمهم في أسرهم وتلاميذهم ، إلى أن دالت دولة المغول ، في القرن السابع وما تلاه ، فآل الحال إلى ضعف وتراجع ، يصفه مؤرخ الهند العلامة عبد الحي الحسني رحمه الله ، بقوله : "لما انقرضت دولة العرب من بلاد السند ، وتغلب عليها الملوك الغزنوية ، وتتابع الناس من خراسان وما وراء النهر صار الحديث فيها غريباً كالكبريت الأحمر ، وعديماً كعنقاء المغرب ، وغلب على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية ، وفي العلوم الدينية الفقه والأصول ،

ومضت على ذلك قرون متطاولة ، حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان ، والإضراب عن علوم السنة والقرآن إلا ما يذكر من الفقه على القلة ، وكان قصارى نظرهم في الحديث مشارق الأنوار للصاغاني ، فإن ترفع أحد إلى مصابيح السنة للبغوي ، أو إلى مشكاة المصابيح ، ظن أنه وصل إلى درجة المحدثين ، وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث .

وتمادى الزمان على ذلك الحال ، وتفاقم الخطب ناسجاً على ذلك المنوال ، حتى كادت تنبت الصلة بين مسلمي الأقطار الهندية ، وبين هذه المشرعة العذبة الغديقة ، أعني الميراث النبوي الشريف المنيف ، وبين حركة التعليم والتأليف القائمة في البلاد العربية بعامة ، إلى أن تداركها الله عز وجل بعنايته ، فرحل من البلاد العربية إلى الهند في أثناء القرن العاشر ، ثلة من أعلام المحدثين ، ذكر عدداً منهم مبيناً مدافنهم صاحب "الثقافة الإسلامية في الهند" ، واستوطن أكثرهم إقليم كجرات من أجل أن مملكة إسلامية كانت قائمة بها آنذاك ، اشتهر ملوكها بحب علم الحديث والشغف به ، وإجلال أهله .

ثم اتصلت هذه الرحلات العلمية برحلات عكسية ، من الهند إلى الحرمين الشريفين للتلقي عن مشاهير علمائهما المتصدرين آنذاك للتدريس والإقراء ، ومن أشهر أولئك الأعلام الهنديين الذين رحلوا إلى الحرمين لطلب الحديث ، الشيخ حسام الدين المتقي (ت ٩٧٥م) صاحب كتاب : كنـز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، والشيخ محمد بن طاهر الفتني الكجراتي المتوفى بها شهيداً (ت ٩٨٦م) صاحب "تذكرة الموضوعات" و "مجمع بحار الأنوار في غرائب التنـزيل ولطائف الأخبار" ، ثم تلاهم الشيخ العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي (ت ١٠٥٢م) فملأ العيبة مما أفاده من الحديث وعلومه في تلك الغيبة التي قضاها بين الحرمين الشريفين ، (مكة وطيبة) ، ثم عاد إلى الهند واستوطن دهلي فبث فيها ذلك العلم بالدرس والإقرار والتأليف ، واستمر هذا الجهد العلمي متوارثاً في أولاده وأحفاده ، إلى أن انتهى إلى مسند الهند باعث النهضة العلمية فيها صاحب الترجمة .

وتتناول المطالب التالية تعريفين تعريفا بسيرة هذا العالم الهمام ، يتلوه تعريف بكتابه إزالة الخفاء .

التعريف بالعلامة الإمام ولي الله الدهلوي :

ولد الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بشاه ولي الله الدهلوي في مدينة دهلي في العام ١١١٠هـ ونشأ في أسرة علم وفضل ، وكان جدها الأعلى المفتي شمس الدين هاجر إلى الهند في القرن السادس ، واستقر بها ثم تسلسلت ولاية القضاء والإفتاء في أعقابه ، إلى أن انتهت إلى أبي صاحب الترجمة الشيخ عبد الرحيم في القرن الثاني عشر وكان من وجوه مشايخ دهلي وأعيانهم ، ذا حظ وافر من العلوم ، وكان من معاصري السلطان المغولي المشهور أورنك زيب عالمكير ، الذي دعا إلى مشروع تقنين الفقه الإسلامي ، وشارك الشيخ عبد الرحيم في هذا المشروع الذي ظهر فيما بعد في صورة الفتاوى العالمكيرية ، المعروفة أيضاً بالفتاوى الهندية ، وكانت دعوة أورنك زيب إلى هذا المشروع جارية في سياق عودة الحكومة المغولية إلى حظيرة الإسلام التي بدأت في عهد الشيخ أحمد السرهندي (ت ١٠٣٤) بعد ما جرها السلطان أكبر إلى الكفر وقادها في دهاليزه المظلمة زهاء نصف قرن ، فكان أورنك زيب وعمله الإصلاحي من ثمار الدعوة الإصلاحية التي قام بها السرهندي الذي يلقب في الهند بمجدد الألف الثاني .

قرأ المترجم وهو بين الصبا واليفاعة العلوم المقررة في الهند في ذلك العهد ، كالتوحيد والنحو والفقه والأصول والتفسير والمنطق والطب والحديث والحكمة والهيئة والحساب وآداب السلوك وعلم الحقائق ، بالفارسية والعربية ، قرأ هذه الفنون كلها على والده ، فكان هو شيخه الوحيد الذي تخرج على يديه ، فلنعم الأب أبوه ولنعم الابن ذلك الابن .

ولما بلغ أشده وجاوز العقد الثالث من عمره ، حج بيت الله الحرام في أواخر عام ١١٤٣هـ ، واغتنمها فرصة ثمينة فثوى في الحرمين الشريفين حولين كاملين ، للقي علمائهما وحمل الحديث عنهم بالقراءة والسماع والإجازة ، فقرأ الصحيحين والسنن (ما عد النسائي) والموطأ ومسند أحمد ، والأدب المفرد

للبخاري ، والشفا للقاضي عياض ، ورسالة الشافعي في الأصول ، وكانت الإجازات التي حصل عليها شاه ولي الله الدهلوي من شيوخ الحرمين ، في كتب الحديث وغيرها من الكتب ، حلقة تتصل بواسطتها سلسلة الإسناد في الهند من بعده ، إلى أصحابها المصنفين .

وبسبب هذه الرحلة التعبدية العملية المباركة ، حصل صاحب حجة الله البالغة على نسخة قيمة نادرة من الجامع الصحيح للإمام البخاري ، صحح عليها نسخته ، لشيخ شيوخه عبد الله بن سالم البصري المكي (ت ١١٣٤هـ) الذي قضى ما يزيد على عشرين سنة – على ما ذكر الدهلوي عنه – في تحقيقها وتدقيقها ، ومقابلتها بنسخة العلامة المتقن شرف الدين أبي الحسن البونيني (ت ٧٠١هـ) وغيرها من النسخ المعتمدة لصحيح البخاري .

وهذا من منافع الحج العائدة على أهل العلم وطلابه ، ومن فضائل أم القرى زادها تشريفاً وتكريماً ، إذ كانت في الماضي ولم تزل في الحاضر ، ملتقى لنعلماء الوافدين إليها من مختلف أقطار الأرض ونواحيها ، ومثابة لهم تصل بينهم بواصلة المذاكرة للعلم وحمله بالعرض والسماع والإجازة ، وحضوره ودروسه ، والحصول على كتبه ، وقد انتشرت كثير من الكتب بين المشرق والمغرب ، بهذا السبب ، وكذلك كانت المدينة النبوية ، دار الإيمان ومأرزه في آخر الزمان ومهاجر رسول الله ﷺ والسابقين الأولين للإسلام تشترك مع مكة في هذه الخصيصة المنيفة .

عاد صاحب إزالة الخفاء إلى الهند من الرحلة الحجازية التي جددت فكره وغيرت مجرى حياته ، وقد ملأ العيبة مما جمع وأوعى من علم مكة وطيبة ، ونبل وبرع في علم الحديث والأثر ، مع حفظ المتون وضبط الأسانيد ، والنظر في دواوين المجاميع والمسانيد ، ولم يتفق لأحد قبله من أهل قطره ، ممن كان يشتغل بهذا العلم الشريف ، وما اتفق له من رواية الأثر وإشاعته في الأكناف البعيدة ، وسمت همته وتوسع نظره ، فأقبل على درس التفسير وعلومه ، والفقه في مذاهبه الأربعة المشهورة ، ودرس أصول هذه العلوم ومبادئها وهذبها تهذيباً بليغاً ، وأكثر من التصرف فيها ، حتى يكاد يكون باني أسها وباري قوسها .

وزاده الله في الإكرام والإنعام إذ وهبه عقلا نقادا وذكاء وقادا ، مع جودة الذاكرة ونفاذ البصيرة ، قال عنه ابنه ووارث علمه الشاه عبد العزيز : "وما رأيت أحداً أقوى ذاكرة من والدي" ، وأثمرت تلك المواهب الربانية لديه ودراية عميقة ومعرفة واسعة بالكتاب والسنة ، وأصول الدين وفروعه ، وبصراً بأسرار الشريعة وحكمها ومقاصدها ، واطلاعاً جيداً على السيرة والتاريخ ، وتجلت هذه المعرفة في تصانيفه وتواليفه ، فقد جاءت صالحة نافعة غزيرة المعلومات ، كثيرة الفوائد نفيسة النكت والشوارد ، ولا سيما كتاباه الفذان الفريدان البديعان : حجة الله البالغة ، وإزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء .

جهود الإمام الدهلوي في خدمة العلم وتجديد الدين :

ولما آنس العلامة الدهلوي من نفسه بلوغ النهاية في تحصيل العلوم : وآن أوان الإنفاق والعطاء ، أقبل على نشر ما تعلم وبثه في الأنام تدريساً وتأليفاً ، إلى أن لقي الله تعالى في العام ١١٧٦هـ ، وكان ذلك منطلقاً لنهضة إسلامية بعثها في دهلي الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

أجل ! لقد قام باعث النهضة الإسلامية في ربوع الهند ، بعمل تجديدي كبير لا يعرف قدره إلا من عرف الحال التي آلت إليه أوضاع المسلمين في شبه القارة في ذلك الوقت ، من الضعف في شتى مناحي الحياة : السياسية منها والاجتماعية والدينية والفكرية .

ودرس الدهلوي التاريخ الإسلامي دراسة الناقد البصر ، فنظر فيه نظرة فاحصة تجلت له فيها العوامل المؤثرة في ضعف المسلمين من أبرزها استيلاء الجمود على العقول وخمود روح الاجتهاد فيها ، وقد كرر التنبية على هذا العامل في العديد من كتبه ، مثل : إزالة الخفاء ، وحجة الله البالغة ، والبدور البازغة ، والتفهيمات الإلهية .

وتناول الأوضاع القائمة في عصره بالنقد ، منكراً على كل طائفة علمية أو تربوية أو مهنية ، جملة من الأخطاء والآفات في سلوكها ومسالكها مع غيرها ، فأنكر على العلماء ولوعهم بالعلوم العقلية وشغفهم بالمناظرات الاستدلالية ، وعلى الفقهاء جمودهم على المنقولات ، وتعصبهم لمذاهب

أئمتهم ، وإهمالهم للنظر في الحجج ووزن الأقوال بالميزان ، وأنكر على المتصوفة شطحاتهم وخرافاتهم وإيغالهم في الرموز والإشارات ، وعلى طلاب العلم انهماكهم في الفلسفة اليونانية والعلوم الآلية وتشقيقات الفقهاء ، وقلة اكتراثهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، مع أنهما معدن علوم الدين ومورده المعين ، وأنكر على الوعاظ أخذهم الناس بالتضييق والتشديد في أمور وسع الله عليهم فيها ، وعلى الأمراء والسلاطين انغماسهم في الشهوات المحرمة ، وعلى العساكر ظلمهم للناس ، وعلى عامة الناس وأهل الحرف منهم خاصة ابتعادهم عن دين الله وعن الأخلاق الحميدة ، وانتشار الخرافات والأعمال الشركية فيهم ، والتبذير الذي راج فيهم .

ولما كان ميزان العلم قد اختل في الهند في زمانه بطغيان حكمة اليونان وجدل المتكلمين ، على اهتمام الطلاب والعلماء ، وكذا علوم الآلة ورموز المتصوفة وإشاراتهم ، فقد عالج الإمام ولي الله هذا الاختلال بصرف جل اهتمامه إلى نشر الحديث وإحياء علومه بعد دروسها ردحاً من الدهر ، فأشرقت شبه القارة الهندية بنور هذا العلم الشريف ، وصارت دار حديث ، فعاد فيها غضاً طرياً بعد ما كان نسياً منسياً ، ونفقت سوق رواية السنة وتدريس أمهاتها من الصحاح والسنن وغيرها ، ونفع الله بهذا الإمام وأسرته العلمية الكريمة وبعلومها كثيراً من عباده المؤمنين ، ونفى بسعيهم المبرور وجهدهم المشكور ، من فتن الإشراك والبدع ومحدثات الأمور في الدين ، ما ليس يخاف على ذي اطلاع على أحوال تلك الديار ، وتغيرت الموازين في تقويم الناس ، إذ صار العلم بالحديث عنوان الكمال وعلامته ، وشرطاً في نبل العالم ونبوغه ، وشعاراً لأهل الصلاح والعقيدة الصحيحة ، قال العلامة صديق حسن خان : فهؤلاء الكرام قد رجحوا علم السنة على غيرها من العلوم ، وجعلوا الفقه كالتابع له والمحكوم ، وجاء تحديثهم حيث يرتضيه أهل الرواية ، ويبغية وأصحاب الدراية ، شهدت بذلك كتبهم وفتاواهم ، ونطقت به زبرهم ووصاياهم ، ومن كان يرتاب في ذلك فليرجع إلى ما هنالك ، فعلى الهند

وأهلها شكرهم ما دامت الهند وأهلها .

ولم يكن عمل هذا الإمام الألمعي اللوذعي قاصراً على النهضة الحديثية ، بل امتد إلى سائر علوم الشريعة وفنونها ، كالتفسير وأصوله والفقه وأصوله ، وأسرار الشريعة وحكمها ومقاصدها ، وعلم التربية والسلوك ، فقد خرجت كتبه في هذه الفنون عن معهود أهل زمانه وبيئتهم الثقافية المتسمة بالإخلاد ، إلى التقليد والجمود على المنقولات ، لا إعمال لفكر ولا نظر ولا طموح لاجتهاد ولا إبداع ، فخرجت تأليف الشيخ عن هذا الطوق ، وبرز فيها من الإبداع والابتكار ما تتحير فيه الأفكار ، لا يرى على شيء من لغتها ولا أسلوبها ولا أفكارها ، ولا على ما اشتملت عليه من مواد التحقيق ونتائج الاستنباط ، ولا يرى على شيء من ذلك أثر لأوضاع ذلك العهد ، "حتى يكاد المرء لا يخيل إليه وهو يسرح طرفه في صفحاتها وأوراقها ، أن هذه الكتب والمؤلفات نسجت بردها في وسط كان غمره طغيان اللهو والمجون واتباع الأهواء والقتل والنهب ، والظلم والعدوان والفوضى" .

وكان من ثمرات النهضة العلمية المباركة التي انطلقت من بيت الإمام الدهلوي أن نشأت في أقاليم الهند مراكز للعلم تتمثل في مجالس للإقراء وحلق للتدريس في البيوت والمساجد ، كما أسست لهذا الغرض الجليل المدارس والمعاهد ودور العلوم ، والجامعات التي تعنى بالعلوم الإسلامية بعامة وعلوم الحديث بخاصة ، ونشط العلماء للأسفار والرحلات العلمية ، ولا سيما إلى البلاد العربية ، وشغفوا بالبحث عن الكتب المطبوعة والمخطوطة ، وأصبح لبعضهم مكتبات حافلة زاخرة بنفائس المخطوطات باللغتين العربية والفارسية .

كما أنشئت عدة مطابع ظهرت بوادرها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، عند ما أنشئت مطابع في مدينة "كلكتا" لطباعة الكتب على الحروف ، ثم أنشئت مطابع عديدة في مدن أخرى تطبع الكتب على الحجر ، مثل المطبع الشاهجاني والمطبع الصديقي في بوفال ، والمطبع الأنصاري والمطبع الفاروقي في دلهي ، وأظهرت الطباعة في الهند عدداً من العلماء الأفذاذ الذين كانوا يقومون على تصحيح الكتب ومراجعتها ، ويعلقون على هوامشها

حواشي نفيسة تزيد في قيمة الكتاب وتجلي غوامضه وتحل مشكلاته ، ومن هؤلاء المحققين شمس الحق العظيم آبادي صاحب عون المعبود في شرح سنن أبي داود ، والتعليق المغني على الدارقطني ، وعبد الصمد شرف الدين ناشر تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للمزي ، وحبيب الرحمن الأعظمي ناشر مصنف عبد الرزاق ومسند الحميدي وكشف الأستار في زوائد البزار .

وأنشئت في حيدر آباد مطبعة كبيرة تشرف عليها دائرة المعارف النظامية ثم العثمانية ، لانتقاء عيون التراث وأهم المصادر في مختلف الفنون ، وحصر مخطوطاها وجمع مصوراها ، ثم القيام بتحقيقها ونشرها بواسطة لجنة علمية ، فكانت بذلك مركزاً علمياً إسلامياً رائداً في شبه القارة الهندية .

وخلاصة ما يقال في الإمام ولي الله الدهلوي وجهوده ، أنه أحد زعماء التاريخ الإنساني وأفذاذه الذين يعالجون مرتبك الأفكار ومتشابك الآراء ، فيجلون غامضها ويحلون معقدها ، ويضعون للفكر والنظر الإنساني نهجاً واضحاً مستقيماً .

أجل ! كان الدهلوي علامة عصره وإماماً باعثاً لنهضة علمية رائدة في الهند الإسلامية ، مناضلاً عن الشريعة الغراء ذائداً عن حياضها المعينة ، حتى لقي الله تعالى في المحرم الحرام من العام ١١٧٦هـ ، وإذا وضع المرء بجانب أحوال زمانه وبيئته ، ووضع بجانب آخر ما جاء به هذا الإمام من العمل الضخم ، فإنه ليدهش من نبوغ رجل في مثل بصيرته وأفكاره وعقليته في ذاك الزمان المتقهقر .

أكرم الله بجزيل المثوبة مثواه ، وطيب بوابل من شآبيب رحمته ثراه .

واستمر لواء العلم والإصلاح محمولاً في بيت الدهلوي من بعده ، ومن أبرز من ورث علمه ودعوته ابنه النجيب الأبر الشيخ عبد العزيز وسبطه الشيخ محمد إسحاق الذي ذاع صيته وحفلت مجالسه بالدروس والإفادة ، وشدت إليه الرحال ، ومنه تبتدئ وعليه تلتقي جميع المدارس الإسلامية الهندية في فهم الحديث وشرحه وتأويله ، وهي على اختلاف مشاربها وتباين مذاهبها

ترد نسبها العلمي إليه ولا سيما في رواية كتب الحديث ، فهو مسند الهند وواسطة العقد ، ومنتهي أهل الرواية في العصر الأخير .

تعريف موجز بالأعمال العلمية للدهلوي :

صنف العلامة شاه ولي الله الدهلوي كتباً جليلة ممتعة يجل تعدادها : منها :

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير كتبه بالفارسية ، ثم ترجم إلى اللغات الأخرى .

(٢) فتح الخبير بما لا بد من حفظه في علم التفسير ، كتبه بالعربية ، وهو تكملة للفوز الكبير .

(٣) شرح تراجم أبواب البخاري وهو على صغره كتاب نفيس كتبه بالعربية .

(٤) المسوى في شرح المؤطأ ، وهو شرح وجيز لمؤطأ الإمام مالك ، باللغة العربية ، وله كتاب آخر سماه : المصفى في شرح المؤطأ ، ترجم فيه المؤطأ إلى الفارسية مع تعليقات وجيزة.

(٥) حجة الله البالغة ، وهو في نظر المحققين من أهم ما أنتجته قريحة الدهلوي ، وجادت به على المكتبة الإسلامية ، كتبه باللغة العربية ، وتناول فيه الكلام على أسرار الشريعة وحكمها ، بما يمكن أن يقال : إن الشيخ عرض فيه تصوره الكامل للنظام الحضاري المتكامل للإسلام .

(٦) البدور البازغة وهو أيضاً من أهم كتب العلامة ولي الله الدهلوي ، وموضوعه قريب من موضوع سابقه .

(٧) إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ، وهو الكتاب الذي نحرر هذه الترجمة بين يدي الكلام عليه .

(٨) التفهيمات الإلهية ، كتاب باللغتين العربية والفارسية ، جمع فيه الشيخ آراءه في قضايا وموضوعات متنوعة في فقه التدين ، على نمط كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي .

(٩) الإنصاف في أسباب الاختلاف ، وهو على وجازته ، من أفضل الكتب المؤلفة في باب مثارات الاختلاف بين الفقهاء .

(١٠) عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد ، بحث فيه حكم الاجتهاد وشروط المجتهد ، وأنواعه ، وصفاته ، وتكلم على تقليد المذاهب الأربعة ،

وتقليد العالم للعالم ، وغير ذلك من الموضوعات المتصلة بأصول الفتوى وآدابها .

(١١) تأويل الأحاديث في رموز قصص الأنبياء كتيب صغير كتبه باللغة العربية ، فيه بعض الأشياء المنتقدة عليه في تأويل بعض المعجزات وبعض أخبار الأنبياء .

التعريف بكتاب إزالة الخفاء وأهمية موضوعه :

إذا صح المثل الشعبي السائر : المكتوب يعرف من عنوانه ، فإن عنوان الكتاب يدل دلالة مجملة أولية على موضوعه والمقصود من تأليفه ، وهو ذب الأكاذيب والأوهام عن خلافة الخلفاء الراشدين المهديين ، الذين خلفوا النبي ﷺ من بعده على أمته وإقامة دين الله فيها ، واجتهدوا رضوان الله عليهم ، بغاية وسعهم ومنتهى طاقتهم ، أن يسيروا في الأمرين جميعاً على هديه عليه الصلاة والسلام ومنهاجه القويم .

وكانت الدولة المغولية في الهند قد تعرضت لتسلسل الصفويين ، لأسباب سياسية ، قبل حوالي قرنين من ميلاد المؤلف ، ثم استشرى نفوذهم السياسي والاجتماعي في عهده ، وأظهروا فتنة بالتشكيك في شرعية الخلافة الراشدة ، والطعن في الخلفاء الثلاثة ، كما ذكر المؤلف في المقدمة ، فجاء هذا الكتاب رداً على تلك الفتنة ومعالجة لما نشأ عنها من الجدل وبلبلة الأفكار واختلاط المفاهيم .

سلك المؤلف إلى بلوغ هذا المقصد المنيف ، مسلك التقصي والتفصيل لحجة ودلائله ، التي انتزعها من كتاب الله العزيز – وفيه الحجة البالغة وقذائف الحق الدامغة – ومن السنة النبوية – وما أسناها – ومن وقائع السيرة النبوية وسير الصحابة عليهم من الله الرضوان ، مما دل بطريق التصريح أو التلميح ، على الفضائل التي ثبتت وتقررت للصحابة من المهاجرين والأنصار ، واختص الخلفاء الراشدون فوق ذلك بخصائص فضلوا بها غيرهم من ذلك الجيل الفريد ، ومزايا سمت بهم ليكونوا أحق بالخلافة وأهلها ، كما أن ترتيبهم الزمني في الاستخلاف وقع على وفق الترتيب بينهم في الأفضلية وقوة التحقيق بتلك المزايا : فأبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي .

وتناول الدهلوي في كتابه هذا موضوع الخلافة ، تناولا بديعا إذ قسمها قسمين :

عامة وخاصة :

فأما الخلافة العامة التي جعل دراسة مباحثها كالمدخل والتمهيد إلى موضوع الكتاب فعنى بها الإمامة العظمى التي أوجب الشرع الحنيف القيام بها في المسلمين في كل عصر من الأعصار ، لحفظ جماعتهم وإقامة دينهم وسياسة دنياهم بالشريعة التي شرعها ربهم لهم في كتابه شرعاً مجملاً ، وقال : **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾** (سورة الجاثية الآية/١٨) ، وبينها للناس على لسان رسوله الأكرم ﷺ ، بأقواله وأفعاله وسائر تصرفاته وأحواله .

وأما الخلافة الخاصة التي هي أم مقصود هذا الكتاب ، فعني المؤلف بها التطبيق العملي لتلك الخلافة العامة أو الإمامة العظمى في فترة معلومة مشهورة من التاريخ الإسلامي وهي الفترة التي تلت زمن النبي ﷺ حتى ثلاثة عقود من السنين ، وهي الفترة المصطلح عليها بعصر الخلفاء الراشدين .

استعرض المؤلف الخلافة بمفهومها الأول العام ، فبين وجوبها وشروطها وطرق انعقادها ، والواجبات التي تلزم من انعقدت له تجاه المسلمين ، والواجبات التي تلزم المسلمين تجاهه ، وهذا الموضوع لم يأت فيه الدهلوي بشيء جديد ، بل كان فيه تابعاً لمن تقدمه من العلماء الذين أفردوه بكتب حرروا فيها فصوله ومباحثه ومطالبه ، كأبي الحسن الماوردي وأبي يعلى الفراء القاضي ، وأبي المعالي الجويني وغيرهم .

ثم أردف المؤلف بالكلام على الخلافة بمفهومها الخاص ، فذكر جملة من المناقب والصفات سماها اللوازم ، تؤهل من استوفاها من الصحابة لهذا المنصب الجليل ، فذكر من تلك الصفات كونه من المهاجرين الأولين : الشاهدين الحديبية ، المبشرين بالجنة ، مبيناً في أعقاب ذلك إلى تحقق تلك الخصائص الحميدة الفريدة في عدد كبير من الصحابة ، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، مع تفاوتهم في درجة التحقق بها ، بحسب تفاوتهم في الرتبة الزمنية

في تولي الخلافة .

بعد ذلك استعرض إحدى عشرة آية من كتاب الله ، أتى عليها بالبيان والتفصيل منتزعاً من كل منها ما يشهد بطريق الإشارة أو الاقتصاد للخلفاء الراشدين بكونهم كانوا على الهدي المستقيم في زمن النبي ﷺ وبعد استخلافهم على أمته ، أما في زمنه عليه الصلاة والسلام ، فبدخولهم دخولاً أولياً في جملة من أثنى الله عليهم وبشرهم بجنته ورضوانه ، إذ بذلوا الأموال والمهج في نصرة رسول الله ﷺ والاستجابة لأمره في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، وأما بعد استخلافهم فبما يقتضيه الوعد للمؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين لدينهم ، وبتبديل خوفهم أمناً ، من أن ذلك لا يكون إلا في ظل إمامة صحيحة وسياسة رشيدة ، تجمع أمرهم وتقيم لهم دينهم الذي ارتضى الله لهم .

بعد ذلك استعرض المؤلف جملة وافرة من الأحاديث والآثار ، رتبها على طريقة المسانيد ، وقصد بذكرها إبراز مناقب الخلفاء الراشدين وفضائلهم المستلزمة لصحة خلافتهم ، وكونها كانت خيراً ونعمة على الأمة .

بعد ذلك تطرق لذكر الفتن التي أخبرت السنة بوقوعها في الأمة ، مبيناً الآثار السلبية التي أحدثتها تلك الفتن في الاعتقاد والأخلاق وفي وحدة المسلمين السياسية ، وأردف بذكر ما أرشد النبي ﷺ إليه من الأقوال والأفعال والمواقف التي ينصح أن يتمسك بها المسلم عند وقوع الفتنة .

هذا مجمل ما اشتمل عليه الجزء الأول من الكتاب .

وفي الجزء الثاني استقرى المؤلف ما في كتاب الله من الآيات التي لها صلة بفضل أحد الخلفاء الأربعة ، بكونها نزلت فيه تثني على بعض أعماله أو خلاله ، أو موافقة لرأيه ، أو لكونه كان أعلم الناس بتأويلها أو بموقع تنـزيلها ، أو تفرد بحسن الاستنباط منها ، مما يدل على وفور العقل وعمق الفهم عندهم رضوان الله عليهم وعلى سائر الصحابة .

ثم تطرق إلى ذكر الدلائل العقلية الدالة على صحة خلافة الخلفاء الأربعة ، أتبعها بذكر الدلائل النقلية والعقلية ، على تفضيل الشيخين أبي بكر

وعمر على غيرهما من الخلفاء الراشدين بله سائر الأمة ، وللمؤلف رحمه الله كتاب مفرد بعنوان : "قرة العينين في تفضيل الشيخين" ، كتبه باللغة الفارسية ونقله إلى العربية الدكتور مقتدى حسن الأزهري ، ولم يتحقق لدينا ما إذا كان كتاباً مستقلاً ، أو هو نفس الجزء المشار إليه من إزالة الخفاء ، أفرد بالنشر لأهميته الخاصة في دحض مزاعم الشيعة الإمامية .

وأما الجزء الثالث والرابع ، فخصصهما لاستعراض ما للخلفاء الراشدين الأربعة من مآثر ومناقب ، واحداً واحداً ، مرتبين على مراتبهم في الاستخلاف ، فاستعرض مناقب أبي بكر الصديق على التفصيل ، ومنها صفاته ومواقفه وبلاؤه في زمن النبي ﷺ ، والإنجازات التي تحققت على يديه في أثناء خلافته ، وختم بذكر بعض آرائه الفقهية ، ثم ذكر مناقب عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب ، على هذا النحو .

وقد انطوى الكتاب في مثانيه وجزئياته واستطراداته على علم جم ، وفوائد غزيرة نفيسة تنم عن سعة اطلاع المؤلف على وقائع السيرة النبوية وتاريخ الخلافة الراشدة ، وعلى حسن فهمه للنصوص واستنباطه وإحاطته بمرامي الشريعة ومقاصدها الكلية والجزئية.

وإن لم يكن لكتابه هذا من مزية يثنى عليه وعلى مؤلفه بها ، إلا تنقية سير الخلفاء الراشدين المهديين ، من علائق الشبهات والأكاذيب التي ألقاها فيها بعض المبطلين وإبراز فضلهم على الأمة الإسلامية ، فضلاً مسترسلاً على طبقاتها وأجيالها ما بقيت إلى يوم الدين ، لكان حقيقاً بكل ثناء وتقدير ، وخليقاً بأن يحتفل به فقهاء الأمة ومؤرخوها ، وسائر أولي العلم فيها ، احتفالهم بصنوه الذي يشترك معه في موضوعه ومقاصده ، وإن تباينا في الأسلوب والتفاصيل ، أعني "منهاج السنة النبوية" لشيخ الإسلام وفخره أبي العباس ابن تيمية الذي دحض فيه أباطيل "منهاج الكرامة" لابن المطهر الحلي الإمامي .

****